(تنبيه بما ان هذه آخر عدد من السنة الثانية لليلى ، آثرنا ان نقتصر على باقي المواضيع كحديث ربات المنازل ومسامرات السيدات والمنزليات باتمام الرواية « تبحث عن مستقبل لها » لان فيها مايبحث في المواضيع المذكورة ولانها يجب ان تختم بهذا العدد)

تبحث عن مستقبل لها

مترجمة عن الانجليزية

« تتمة »

فابتسم لها ذلك الشاب الجميل وقال : « هذه السيارة المعروفة بشعاع الشمس متوفرة فيها جميع اسباب الراحة وهي احسن سيارة في كل الاسواق . وهذه ادواتها المتينه مع دواليبها ومكبسيها ، وفيها النور الكهربائي ، وانبوب الماء البارد ، وسقف فوق الرأس مكسو بالقطيفة اللامعة الجميلة ... » سرد لها كل هذه الحسنات وهو على نفس واحد كانه يعيد درساً تعلمه غيباً . ثم سألها :

« هل تود مشترى سيارة ام قصدت التفرج فقط ؟ »

اجابت مرسيا على الفور بلهجتها البسيطة وصدقها الجلي واخبرته بكل مادار في خلدها وما قالته لها « الس كيركمب » وانها مصممة على اخذ السيارة حالما تقبض دراهمها . فما فرغت من حديثها حتى قفز امامها وسألها ان تتبعه الى غرفة المعرض . فاقترب من السيارة التي اختارتها فحرك آلة سيرها ودفعها الى الخارج . ثم التفت الى مرسيا وقال : « تفضلي ياسيدتي واجلسي بجانبي لاسير بك في الشوارع والمنتزهات لترى ان «سيارة شعاع الشمس » لاتفوقها اية سيارة كانت

جلست الى جانبه وهي ترتعش فسار بها داخل الشوارع فكانت السيارة

تمر كالسهم ومرسيا حائرة معجبة بحركة يدي الشاب ورجليه حتى عبر بها جميع الشوارع العظيمة والمنتزهات الجميلة . ومرسيا صامتة الى ان قالت : « انني لم اكن اعلم ان السيارة يلزمها انسان يحركها بل كل ما اعرف عنها انها تسير وحدها فهل تفتكر بانني اتمكن على تسييرها فاني ارى العملية معقدة مرتبكة. »

فضحك من لهجتها المضطربة وقال : « انها سهلة كترتيل ترنيمة كيف يمكن ان تسير « شعاع الشمس » وحدها ! انني ساعلمك تسييرها بعد ان تكوني قد اشتريتها . وانا اتعهد بانك تسيرينها وحدك بعد عشرة ايام فقط . وسأعلمك في اوقات استراحتي من العمل وافهمك كيف تمسكين المسكات والمحركات »

فقالت : « انك لطيف للغاية . لكني مافهمت ما تعني بالمسكات والمحركات؟ »

قال : « يجب ان تشتري سيارة مكملة العدة والجهازات من بطارية ونور كهربائي وبوق ودولابين زائدين لوقت الحاجة. وكل هذا يبلغ ثمنه مع السيارة ٢٥٠ جنيهاً . وانا اعلمك استعمال كل قطعة » قال هذا باشاً متبسماً وادار السيارة الى جهة المحل ولكنه لاحظ ان مرسيا اكتأبت لان الوقت كمل .فاقترب اليها وقال بكل تودد : « ارجو ان لاتستائي من جسارتي ياسيدتي فتفضلي اشرب الشاي في المحل . هذه هي العادة حينما يشتري احد سيارة من محلنا »

هذه اول مرة في حياة مرسيا عرض عليها احد الشبان دعوة . فقبلتها بكل فرح وشكر .ثم قالت : « انني لم احصل في حياتي على يوم كهذا . »

اجاب الشاب — : وهو يدير « مزهرية » الزهور امام مرسيا « وليكن معلومك انك اليوم جعلت لي سروراً عظيماً . لانك لستِ كباقي الفتيات اللواتي يأتين لكي يتفرجن فقط على السيارات »

فقالت : « وكيف هن » ؟

ـ : لا اعلم دعينا منهن فانهن يشغلنني ساعة في مسح محرك السيارة لمعفرة من « بودرة وجوههن » والنتيجة ان الفتاة العصرية تجعلني اعطس من بودرتها . لكنني بالحقيقة ارتاح الى خطتكِ لانك تقصدين ان تدوري حول العالم الواسع لتبحثي عن مستقبلك فيالك من فتاة مخيفة . فانك صائدة الزوج !

فقالت مرسيا بهدوء وهي تأكل قطعة كعك :

ـ: انا اريد لي بيتاً خاصاً محلى بحديقة متنوعة الازهار .واريد روايات مدهشة مهيجة . وانني ذاهبة لايجـاد ذلك » . وتمادت بينهما المحاورة على الصورة الآتية :

ـ: انا افتكر انك حكيمة وذات روح خفيفة لانك تعلمين ماتحتاجين عنه وتخبرين

ـ : نعم ، قد كنت منذ اربع سنوات سا كـنة جامدة اذ كـنت مرافقة المس كير كهب التي هي بالحقيقة لطيفة جداً لكـنها تذهب الى النوم الساعة التاسعة مساءً . وكم كنت اتضايق في ليالي الصيف الجميلة . وقد كان من الحرام ان تضطرني العزلة الى النوم من المساء

ـ: انا كون معك اذا احببتِ واذا اردت ان تشتري شيئـاً فتعالي الي وانا اوجد لك الشيء المناسب . اما اسمي فهو « ارل جنسن » وهذه هي بطاقتي . واما والدي فهو رئيس هذا المحل النادر وان بقيت صالحـاً فاكون له شريكاً . اخبر تك بهذا لانك فتاة صالحة وصادقة وقد او قفتني على خطتكِ

وفي الغداة استلمت مرسيا دراهمها من المصرف واشترت السيارة « شعاع الشمس واخذ المستر ارل جنسن يعلمها سوق السيارة دائراً بهـا الاسواق والطرق والشوارع التي مانظرتها قبل ذلك في حياتهـا . وطـاف بها ارل

جنسن القرى والبراري والمتنزهات حتى ان رجليه ما كانتا تطأ بيت والده الا وقت النوم

وفي اليوم السابع من تنزههما سوية قال لها بتأسف لقد اصبحت الآن قادرة على سوق السيارة وحدك وحيث ان الغد نهار السبت وانا خالي الاشغال فنقدر ان نصرفه ايضاً كله في التنزه

فعظمت مرسيا هذه الفكرة وقالت في نفسها : ياما احسنه والطفه وياليتني كـنت اعرفه قبل تلك الاربع السنوات فما كـنت اخرج للعالم الواسع لابحث لي عن مستقبل . ولـكن الحمد لله قد اصبت على كل حال في البحث عن مستقبلي وابتياع السيارة ولقاء ارل .

ولابد ان القارىء شعر ان مرسيا اشترت لها ثياباً وبدلات متنوعة

فان الدراهم « تنير العقل وتملأ الدواليب » وفي الغد حملت السيارة الفتى والفتاة الى المتنزه وحالما نزلا استلقى « ارل » على ظهره فوق بساط الربيع واضعاً قبعته على عينيه . وقد فارقه الفرح على ان لايعاوده ابداً فقـالت مرسيـا : غداً الساعة الحادية عشر اظهر للعالم في بدلة انيقة عملتها لكي ابحث بها رسمياً عن مستقبـلي

انني لا انكر لطف المس كيركهب لانها قالت لي اذا وجدت لك مستقبلاً ولم يعجبك بعد ثلاثة اشهر فيمكـنك ان ترجعي اليّ فان بيتي مفتوح لك الا اني ارى « ان الرجعة لاتستحسن على الاغلب »

فهمس « ارل » قائلاً : ان هذا لجنون . ثم رفع صوته وقال لها : انا لاافهم التغيير الذي فاجأ فكري . فاذا سرت وحدك كما تتوهمين فربما تتعطل بك السيارة في مكان خالٍ وانت في اول المباشرة وحدك . فان كـنت تتوهمين

ذلك قادرة ، فانت على خطأ عظيم واما اتكالك على « توهمك » بان اصبحت عالمة جغرافية الطرق فضلاً عن فنون سوق السيارة فيعد مخاطرة

ـ : ولمَ لم تقل لي هذا حين دفعتني الى ابتياع السيارة ! . . . .

ـ : لايجوز لي ان اقول هذا وقت المبايعة وعلى كل حال لايجب على الفتيات ان يسرن وحدهن . انما يجب ان يكون برفقتك شخص آخر لكي يعتني بك عند الحاجة

ـ : لكنك اكدت لي ان « سيارة شعاع الشمس » هي « امينة » حتى ان ولداً صغيراً يقدر ان يسير بها بلا ادنى خطر

نعم انني قلت هكذا ولكن الآن لايطاوعني اخلاصي لك على اهمال تنبيهك الى مايلزم حتى تكوني على بصيرة

ان ذلك الشاب المسكين كان شغله يقضي عليه بالسعي والاجتهاد « واما ضميره فيقضي عليه بان يكون اميناً للطرفين » وتابع الفتى الخطاب قائلاً : اما من جهة الماكنة فلاخوف عليها قطعاً الا ان الحقيقة تجبرني على التصريح بانني اكره ان تخبط الفتاة التي مثلك وتصادم وحدها هذا المعترك

ـ : ولكن على حسب فكري ان احلى شيء لدي في العالم ان اسير وحدي بدون ان اكون تحت سيطرة احد

ـ ومن يغير لك الدواليب اذا اصابتها لطمة وانشقت « وبنجرت » ؟

ـ : لماذا تضع امامي عراقيل ومخاوف دون ان تفتكر انني ربما التقي ببرنس متخفٍ او غيره . . . ؟

ـ : الفتيات العصريات هن غير الفتيات اللواتي نقرأ عنهن في الكتب .

وارجو انك لا تكونين مثلهن فان الخوف الشديد من عدم نيل المرام قد يعجل السقوط في الورطات

بعد هذا جلسا هادئين ومسرحين انظارهما في تلك المروج الواسعة وحقول الزهور الشيقة

ثم نهض « ارل » وقال : ارى ان نرجع الآن لان الشمس قاربت الغروب ووقف امامها وقال :

اريد يا « مرسيا » ان اسألك شيئاً ؟ فرفعت اليه نظرها وقالت بثغر باسم : تكلم . فتردد كأن وقت المصارحة الجديدة لم يحن . فاقتصر على ما يأتي : اتريدين ان تعطيني وعداً ثابتاً الآن ، بان تطلعيني على احوالك وما يجري لك ، وعلى اي شخص تعتمدين في مساعدتك على ضمان مستقبلك . وان تسمحي لي بمعاونتك

ـ : وما المانع لذلك ؟ انني مسرورة جداً بهذا ، وسوف اوقفك على كل شيء يحدث لي لانني قد اعتبرتك من الآن صديقي المخلص

ثم ركبا السيارة وعند وصولها بيت « مرسيا » افترقا على ذلك الوعد . ولم تشأ « مرسيا » ان تفتكر في حقيقة كلام « ارل » الذي فهمت منه جانباً لكنها صرفت افكارها الى اعداد منهاج نهارها التالي .

***

عند الساعة الحادية عشر صباحاً من اليوم الثاني استعدت « مرسيا » لمباشرة مهمتها وقد ارتدت بدلتها الجديدة وقبعتها الجميلة وتقدمت الى سيارتها ودفعتها الى الامام . وقد كانت المس كيركهب والخدم واقفين ينظرون اليها وقبل ان تصعد مرسيا قالت لها المس كيركهب من يترك الغذاء اللذيذ الحار ويذهب

الى الخارج في هذا الوقت ؟ فلم تتوقف « مرسيا » لانها خافت ان يفوتها الوقت فصعدت في الحال الى السيارة وودعتهم وطاردت من امامهم وسارت في طريق همرسميث وخارج لندن وكان النهار طيباً رائقاً والشمس مشرقة

وعند الساعة الواحدة والنصف كانت « مرسيا » وسط مرج واسع وقد جلست للاستراحة وتناول طعامها وكان مقتصراً على برتقالتين وثلاث موزات وربع كيلو من البسكت ولم تأسف قط على مغادرتها بيت « المس كيركهب » ولا الاطباق الملأى من الشوربة « الارلندية » . ثم نهضت فمسحت من سيارتها المحبوبة ما علق بها من الغبار ثم غسلت يديها من الساقية واخذت تواصل سيرها وانحرفت نحو القرى ولم تحتج الى دليل فكانت تصعد التلال وتنحدر الاودية وتمر في السهول وهي فرحة لاتحس الا بالسرور . وعند الساعة الرابعة وصلت الى نقطة علّق عليها لوحة كتب عليها « هورشهام ١٠ اميال . والى شافيلد ميلان اثنان » فاختارت طريق « شافيلد » لانها رأت الجو قد تكدر وافتكرت ان الامطار والرعود قريبة . والرعود تحدث بغتة في انجلترة . ومرسيا تكره الرعد جداً

وما سارت قليلاً حتى اكفهر الجو وقصف الرعد واخذت الاشجار الباسقة تتمايل وتتلاطم ومرسيا تشجع نفسها قائلة « هذه زوبعة تمر الآن » ثم عصفت الرياح ولمع البرق ، وتزايد الرعد وسالت الامطار الغزيرة فهلع قلبها فجدت في السير نحو شافيلد فدخلتها ولكنها لم تر هناك سوى قصر واحدٍ ومن حوله يبادر الحنطة واكوام القش وحقول البطاطة . فوقفت حيرى في امرها وقد اشتد المطر حتى بللها وجرى الى ماكنة السيارة . وبما ان مرسيا حديثة في السوق لم تنتبه للماء مع ان « ارل » كان قد افهمها ماالذي يجب ان تعمله في مثل ذلك

الحادث ولكنها نسيت كل شيء لشدة خوفها من الرعود المرعبة والبروق اللامعة فجنحت بسيارتها الى الاشجار الباسقة الكثيفة لعلها تحميها من البلل والغرق فزاد ذلك الطين بلة فمولت على الالتجاء الى القصر حتى تنتهي الزوبعة . فادارت محرك السيارة فلم تتحرك السيارة فعالجت وتعبت كثيراً ولكن بلا فائدة فان السيارة بقيت راسبة جامدة فزاد ذلك في رعبها . فتركتها في زاوية وسارت على قدميها تخبط في الوحول والمياه حتى وصلت مدخل القصر فبهتت من ذلك المدخل الجميل الفخم الذي صفت على جانبيه تماثيل بديعة واوعية للزهور وكلها من المرمر الناصع البياض ثم تقدمت الى الباب وقرعته فلم يكن لها من مجيب . انما سمعت شيئاً اشبه بحفيف الارواح والاشباح ! فرجف قلبها وخافت من ان القصر مسكن للارواح . فقرعت مرة ثانية بشدة ورعدة واذا بها تسمع صوت خطوات متثاقلة فصبرت حتى فتح الباب وظهرت من داخله امرأة عجوز نظرت الى « مرسيا » وقالت : « ما الخبر ؟ »

اجابت مرسيا : « ان المطر نزل في ماكنة سيارتي . ولهذا لم اتمكن من السير اكثر »

فقالت العجوز : ماذا تعنين ؟ بماكنتك وسيرك ؟ اتعنين انه اصابك نوع من المغص ؟ . . . .

فقالت « مرسيا » انا لم يصبني شيء انما سيارتي هي المصابة

قالت العجوز : « فتاة مثلك لها سيارة ؟ . . .

قالت « مرسيا » الا يوجد هنا من يفهم في السيارات ويقدر ان يأتي معي فينظرها ويعالجها ؟

فانصرفت العجوز ولم تلبث ان عادت وبرفقتها رجل طويل القامة نحيف

ازهارها ولهذا فانا « البستاني » الخاص بها . ثم استلقى على كرسيه واستغرق بالضحك . والتفت اليها وقال : وانت من انت ؟

اجابت : انا ادعى « مرسيا سنكلر وقد كنت مرافقة لسيدة مسنة اعتني بها واربي كلابها وقد نلت ارثاً وجيزاً . وها انني اليوم اتنزه وغداً ابحث لي عن شغل

— ياللعجب ! ولكن اي عمل احسن من ان تكوني مساعدتي في حديقتي ؟ فاني محتاج الى مساعد . ولكني لا اقدر ان ادفع اجرة كبيرة

— : لا اقدر على اعطاء الجواب الآن

— ما المانع وحريتك بيدك ؟ فارضي بالقيام بمساعدتي في هذا المحل الجميل الذي حله يوماً الملك شاراس وبات فيه قبل ان قطع راسه بوقت قصير . وانا اريك الفراش الذي نام فيه . . فهلمي الى الجنان وحيي الياسمين الجميل الزاهر فيها

فابتسمت مرسيا وقالت في نفسها انه يدفع لي اجرة زهيدة ويرشوني بالياسمين

ثم قال لها : انت لاتعلمين كم انا تعبان في تدبير اموري وليس لدي عملة وها ان ايام الحصاد قد اقبلت

اجابت مرسيا : انت لاتعني بقولك هذا انك وحدك هنا وليس لك معين

فاجاب بحزن وقال : لا احد هنا غيري . وقد كان جدي مسرفاً للغاية فترك شافيلد تحت ضيق شديد ودين كبير ولهذا فانني اجاهد ان اعمل كل شيء بنفسي لكي ارد مجد قصر آبائي الى بهائه السابق الذي اتذكره وانا ولد

البدن فتقدم الى « مرسيا » وسلم عليها ورحب بها كأن له سابق معرفة بها . فشكرته مرسيا على لطفه ثم قالت : ان سيارتي هاهنا فارجوك ان تساعدني على تصليحها . فقال تفضلي الآن وخذي قليلاً من الراحة وتناولي فنجاناً من الشاي . فتبعته الى غرفة صفت على جدرانها رفوف الكتب فدارت نظرها حول الرفوف وقالت في نفسها : لعل سوء الحظ الذي صادفته هذا اليوم والمطر الذي بللني وعطل سيارتي ينتجان لي مستقبلاً باهراً . فهاهي الكتب التي تمنيتها وها هي الحديقة الجميلة التي حلمت بها وهذا القصر الفخم الذي طلبته نفسي . فقدم لها الرجل كرسياً وقال : اجلسي هنا امام هذه النافذة وسرحي نظرك في حديقتي التي اعتني بها بنفسي واغرس زهورها بيدي . اليست جميلة ؟

فجلست « مرسيا » وامامها ذلك الرجل الطويل النحيف الجسم واخذا يتناولان الشاي وقد دار بينهما الحديث فقصت عليه « مرسيا » دورتها في سيارتها ذلك اليوم وكيف انها اختارت طريق شافيلد

فقال : انني مسرور لانك اخترت هذه الطريق لكي تنظري شافيلد . فانها من الاماكن التي تنظر في انجلترة . يقولون انه في السنين الماضية حين جاء ملك اسبانيا الى انجلترة وعند رجوعه الى وطنه سئل عما نظر فاجاب انني ما نظرت شافيلد ويا للاسف . قالت « مرسيا » : انها جميلة جداً . لكنني افتكرت ان شافيلد هي قرية

— : لا لا ياعزيزي نحن لا نسمح لاحد ان يبني بها حجراً ماعدا مآوي للبقر فقط : وهذه هي مقاطعة شافيلد . وعلى ما اظن انك ترتاحين ان تعرفي انني اللورد « سالتفورد » صاحب هذه المقاطعة . وقد اخذت على عهدتي تربية

صغير ولكن الامور تتعدل اذا صممت انت على الاقامة معي وكنت لي مساعدة

فافتكرت « مرسيا » قليلاً ثم قالت : انني اجرب هذه المتاعب وسوف اجازف لارى هل اقدر عليها فتهلل وجه المركيز وقال هذا ما كنت انتظره منك والآن هلمي ننظر الى سيارتك . فاختاري لها هنا اي كوخ يعجبك، ونزل بها الى آخر الحديقة واراها ثلاثة اكواخ فاختارت كوخاً عرّش عليه الياسمين الابيض لتتخذه مأوى لسيارتها المحبوبة . ثم خرجا يخبطان في الوحول حتى وصلا السيارة فتقدم المركيز وحرك المكبس ورفع الآلة فسارت السيارة ثم قال اصعدي وسيريها ورجعا سوية الى القصر حيث كانت العجوز في صحن الدار تأخذ شايها « واسمها المسز بنتيكيوم » فناداها المركيز « سلتفورم » قائلاً ها ان المس سنكلار قد رضيت ان تكون معينة لنا في العمل . وها انني منذ الآن اشعر ان الفرح يتسرب الى قلبي

***

وهكذا اصبحت « مرسيا » ملاك المساعدة للمركيز. كما انها اضحت ملاك الجمال وآية التأنق والذوق ، تدهش كل من ينظر اليها وتسحر القلوب بقوامها وحركاتها وسكناتها . وكانت ترافق المركيز في اشغاله وهي على جانب عظيم من النشاط ولكنها لا تتقن ذلك العمل . ومع كل هذا فان المركيز ما كان يعمل شيئاً الا بعد استشارتها وقد سرت مرسيا جداً لهذه المصادفة وشعرت انها سعيدة جداً جداً . فانها انست لطفاً ورقة من المركيز وقد اسفت للاربع السنوات الغابرة التي اضاعتها برفقة المس كيركهب ولا انيس لها ولا جليس يؤنس ويسلي وقالت لها المسز بنتيكيوم : « انت لا تقدرين ان تجدي رجلاً

في العالم احلى والطف من المركيز لتشتغلي معه . فانه لطيف وشريف الى حد ان كل من يتكلم معه يشعر انه جذب اليه . واعلمي انه لم يبق في انجلترة واحد من جنسه ومزيته . ولا احد فيها من يستحق ان يمسح حذاءه ! »

وبعد ذلك اكملت المسز معدات المائدة فحضر المركيز وجلست مرسيا امامه وقبل ان يباشر الطعام ادى صلاة الشكر ثم قال . انني لا اريد ان اغير عادة ابي واجدادي فانهم لا يهملون امر الصلاه وقراءة الكتب المقدسة قبل مباشرة عملهم وها انني محافظ على كل تقاليدهم وبعد ان اكملو طعامهم قال لمرسيا اتبعيني لكي نقرأ الكتاب المقدس . ودخل بها الى غرفة زينت جدرانها برسوم اسرته الشريفة وقال: هنا اقوم بواجباتي الدينية كل يوم بحضور ارواح اجدادي هؤلاء . . . وبعد ان اكمل قراءته . سألته مرسيا ما هذه الاشياء الجميلة اللامعة داخل هذا الدولاب اجاب : هذه الاواني الذهبية التي كان اجدادي يستعملونها اثناء الولائم العظيمة وسوف اريك الآن جواهر والدتي. واخرج من الخزانة بعض الجواهر واللآلىء النادرة فدهشت مرسيا وصرخت ياما اجلها ! ياما افخرها ! افلا تخاف عليها من السرقة ؟

فاجابها بلطف : من يسرقها ؟ لا احد يعرف اين هي محفوظة ، سوى انت والمسز بنتيكيوم . ولابد من ان اصونها تحت القفل حينما اتمكن من اعادة مكتبي الى نظامه

***

وفي اليوم التالي صمموا على حصد الزرع ولما لم يكن بينهم من يعرف ذلك ، تقدمت مرسيا وربطت ماكنة الحصاد بحصان للمركيز « من بقايا الطوفان » واخذت في العمل مع رفيقها الى آخر النهار فاعتراها ألم في ظهرها لم تشعر بمثله

في حياتها كلها . ودام شغل الحصاد اسبوعاً كاملاً . ثم دعي الدراس ليدرس الزرع المحصود فقال : ان هذا البيدر لايستحق الماكينة لانه ضعيف جداً واخذ يتذمر ويمتنع عن العمل . فاحتدت مرسيا وصاحت بالمركيز قائلة: كيف تسمح لهذا ان يكلمك بهذا الكلام؟ انه عامل فيجب ان يجري عمله و ياخذ اجرته وكفى .

فهدأ المركيز غضبها واتفق مع العامل وصرفه على ان يعود في الغد و يباشر العمل

ثم رجعت مرسيا مع المركيز الى القصر وقبل ان يصلا هبت الرياح بشدة واخذت تسف ذلك البيدر الخفيف الحبوب . ثم قصفت الرعود وهطلت الامطار وبعد ان سكنت الزوبعة رجعا الى البيدر وجعا ما كان قد تطاير من الحبوب وفيما هما راجعان سقطت نظارة المركيز من عينيه فاخذ يستنجد مرسيا قائلاً :

اسرعي في ايجادها لاني اضيع بدونها ! فاستغرقت مرسيا في الضحك حتى امتلأت اجفانها دموعاً . ثم وجدت النظارة ومسحتها و ناولته اياها قائلة : انك اضحكتني جداً !

فقال وهذا مما يسرني ايضاً فاني احب ان اراك دائماً مبتهجة برفقتي

***

وصلا الى الحديقة وجلسا صامتين وامامهما الازهار تبسم فخرجت زفرة مؤلمة من صدر المركيز على اثر صمته وافتكاره . فانتبهت مرسيا اليه وسألته : ما هذه الزفرة الموجعة ؟ فانني شعرت بانها سهم اخترق فؤادي ! . . .

— : انني متضايق جداً يامرسيا وقد كنت مؤملاً ان حقولي تنتج لي شيئاً هذه السنة ولكن ساء فالي وها انني مضطر لدفع قسط من الدين في الاسبوع القادم

— : ولماذا لاتبيع شيئاً من تلك الاشياء الثمينة كاطباق الذهب و غيرها وتصلح بثمنها احوالك ؟

— : ان كلمتك هذه آلمتني جداً ياعزيزي فانك لاتعلمين ماهي شافيلد . انني لا اقدر ان ابيع شيئاً من هذه الاشياء كما ان من كان قبلي من اسرتي لم يجسر على هذا . واي جواب اعطي ابني حينما يعاتبني على ضياع آثار اسرتنا القديمة ؟ . .

— : انني لا احب ان اراك مرتبكاً ولا مهموماً ياحضرة المركيز

— : يامرسيا احب ان تنادي من الآن و صاعداً باسمي الخاص وهو «اليك»

— : ولكن ماذا تفتكر المسز بنتكيوم حين تسمعني اناديك باسمك الخاص ؟

— : المسز بنتكيوم امرأة فوق الستين فما عساها ان تفتكر! وفوق هذا فهي تحبني الى درجة العبادة

نهض المركيز في اليوم التالي باكراً وقد كان الجو صافياً ونسيم الصباح يلاعب الازهار والاشجار والعصافير تملأ الفضاء بانغامها الشجية فرأى مرسيا قد سبقته الى الحديقة فقال لها : اعلمي يامرسيا انني صرت اشعر بانتعاش في داخلي وذلك من يوم دخولك قصري . وانني ارجو ان نصرف الشتاء القادم بهناء وسرور لان شافيلد جميلة جداً في فصل الشتاء

— : انا ان ابقى هنا الى ايام الشتاء . . . ياعزيزي ! . . .

فسقطت هذه الكلمة كالسهم على فؤاده ولم يقو على المجاوبة لعظم تأثره . . و بعد ان تناولا طعام الصباح قال المركيز : يجب ان اذهب الى المدينة لان عليّ كمبيالات استحقت وعدتها وليس لديّ مبلغ اؤديه

ودخل غرفته وارتدى حلته الرسمية ولبست مرسيا بدلتها الخاصة بسوق السيارة . واحضرت سيارتها فصعد اليها المركيز بهيبة ووقار فمرّا امام القرى

المجاورة . وقد دهش سكان تلك القرى لنظرهم المركيز داخل سيارة تسوقها فتاة . وصرخوا قائلين : انظروا المركيز الكسلان قد ابتاع سيارة في وقته العصيب وتسوق سيارته فتاة . فيا للجنون !

ثم انحنى الى جهتها بوجهه الشاحب وهمس قائلاً ليس الى هناك !

ـ :ماذا تعني ، الا تريد ان تذهب ، الست مؤكداً بانك ذاهب بعيداً ؟

وهنا ضحكت مرسيا

فاجاب ايتها: المساعدة غير المنتظرة سوف لا تبقين الى ايام الشتاء ؟ وسوف لا تساعديني في الحديقة والحقول!..وقد زاد بياض وجهه حتى انه اخاف مرسيا جداً

فغيرت الحديث قائلة : ها اننا قاربنا المحل المقصود وعليك ان تفتكر بما انت آت لاجله ودع شافيلد الآن من افكارك . وكانت السيارة تنهب الارض . فنظر المركيز الى مرسيا ثم خفض نظره محترماً جمالها وتنفس الصعداء وقال : نحن الآن خارج ابواب شافيلد . فشعرت مرسيا بتأثره من كلام الفلاحين الى حد ان وجهه اصفر جداً فتوجعت عليه واوشكت ان تبكي فحاولت مقاومة الدموع بالضحك فقالت بسرعة : ارجوك ان تضحك

— : نعم اضحك لو تاكدت انني لا احرم لطفك ومعاونتك

— : ولكنك تقدر بكل سهولة ان تجد غيري لتضع لك المائدة وتكون سيدة « شافيلد » ، ومساعدة المسز بنتكيوم

— : لا اريد ان اعود الى الايام القديمة . انت جلبت لقلبي السعادة فادخلت حبك في قلبي . نعم انني احبك . واحبك جداً ! ـ قال ذلك بحماسة واخلاص وشجاعة وقد استغرب صبره على كتم حبه حتى ذلك الوقت . ثم اردف وقال : ايتها المنجدة غير المنتظرة والملاك الطاهر المساعد ، انا احبك

واشكرك فكيف تتكلمين عن الذهاب ! ...

اما مرسيا فلم تحلم قط بحدوث هذا

وقال المركيز: كثيراً ما قرأت روايات وقد كنت افتكر ان تلك الصدف المفاجئة لا يصدقها ويفرح بها سوى الصغار . وها قد تمت الرواية بي حين حضورك ! الا يا مرسيا لا تتكلمي عن الذهاب !

— : انت لا تعرف شيئاً عني فربما كنت سارقة او متشردة ، او بولشفية .. كل ما عرفت هو انني كنت فتاة مرافقة لسيدة ومربية كلابها . وقد كنت فقيرة ، ولا يتنازل الناس الى النظر الى ابنة فقيرة ...

— : وما دخل الفقر في المحبة ؟ هل تفتكرين انني اهتم بما كنت ؟ انا لا يهمني سوى كونك الآن الملاك الذي احبه . ولا اجد سعادتي الا به ! فان رضيتني فانني اقوى على كل شيء . انا اعلم انني اكبر منك سناً وقد بلغت الخامسة والاربعين فهل هذا يزعجك ياعزيزتي ؟ ومع كل هذا فالخامسة والاربعون لا تجعلني عجوزاً الآن ، كما فعلت بي قبلاً ، لان الامور تبدلت . وها انني احادثك بهذا الموضوع رسماً ياعزيزتي . واعلمك ان كل ما لي من مجد وشرف يظهر لي فارغاً اذا لم تؤيديه انت باشتراكك معي في الحياة واقترانك بي بالزواج المقدس فلا ترفضي طلبتي يامرسيا ولا تضيعي السعادة المبتغاة

فاندفعت الى مصافحته وهي تقول في نفسها : « انه محبوب وعاقل ولطيف ولكن كيف اقف بينه وبين عوائده المتمسك بها ! » . . . فنظر اليها المركيز وقال : « اقطعي لي العهد يامرسيا » فاطرقت راسها واخذت تفتكر بانها في اول شبابها واذا قبلت الاقتران به فيضطرها الامر الى الالتصاق « بشافيلد »

وحتولها القاحلة والمسز بنتكيوم والجنينة والمستنقعات وغير ذلك ، والى الكفاح في سبيل تحصيل الفائدة التي يشق نيلها . ورأت ان هذه ليست بالرواية الحلوة التي حلمت بها انما هي مجابهة مصاعب ثقيلة ومتعبة فشعر المركيز انها غارقة في افكار مزعجة فقال لها : انني غير مستعجل في امر الزواج فافتكري فيه ملياً ولكن لا تفارقيني . . . ولم تتمكن مرسيا من اغماض جفنها تلك الليلة وقد ساءلت نفسها مراراً هل هي تحبه فكانت تتراءى امامها عيناه الذابلتان وروحه الوديعة فتشعر بجاذب يجذبها اليه . فقررت في نهاية الامر ان تقبله زوجا لها بناء على ان تقنعه بان يبيع شافيلد و يسكن المدن ، وبهذا الامل نامت نوماً منعشاً

وفي صباح اليوم التالي قالت له : اريد ان اكلمك على حدة ياعزيزي

فجلسا امام الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة وجرت بينهما المحادثة الآتية

— : لقد صممت على الاقتران بك وانني سوف احبك واهتم بامرك واقف امام العالم كترس يحميك من كل كدر وتعب

— : اشكرك ياعزيزتي فاسمحي لي بتقبيل يدك

— : مهلاً ولكنني لا اقدر ان اقترن بشافيلد . واحب ان تبيعها وتخلص من هذا التعب الشاق وتفي ديونك وتنجو من هذه الحياة : حياة الوحدة الموحشة المتعبة

— : العلك مجنونة ؟ ان شافيلد هي حياتي . وفيها نشأت وفيها اموت فاحذري ان تعيدي هذا الكلام امامي مرة اخرى على اني ارجو ان تدخل شافيلد الى دمك وليس الى قلبك وحسب . فاني افضل ان اموت جوعاً في شافيلد من ان اتركها واعيش ملكاً خارجاً عنها . . . انا احبك ياعزيزتي والله يعلم انني احبك . ولكن ماذا اعمل خارج شافيلد ؟ في حين ان لاحياة لي

خارج شافيلد ؟ واذا فارقتها فاكون كالطائر في القفص

— : وانا اذا سكنتها اكون كعصفور في قفص ! . . . .

— : في شافيلد ترفرف ارواح اجدادي ومن تلك الارواح اقتبس الحياة والآمال

— : اية الاثنتين اعز عليك ، مزرعة شافيلد ام انا ؟

— : يالك من فتاة قاسية القلب ! انك تدفعيني الى الجنون بهذا التخيير غير المنتظر !

— : وانا اريد ان لا يخامرك ادنى جنون وعلى ذلك نقطع الحديث الآن ،

وظن المركيز انها قنعت بان لا تباع شافيلد وانها خطيبته وعن قريب تصير امرأته . وبينما كان ذات يوم منهمكاً في غرس الورود قال لمرسيا : «حينما يأتي الوقت ياعزيزتي لان تعودي اليّ حياة الرفاه الغابرة ، ارتب كل شيء على ذوقك» فتهندت مرسيا وقالت في نفسها : « ياما الطفه واخلصه ! » وبعد ايام جاءها تحرير من المس كيركهب تقول فيه : « ايتها الابنة المجنونة . متى تعودين اليّ . اطلعيني على رايك» . فلم تحب مرسيا ان تجاوبها وتوالت الايام والشهور . وجاء الشتاء بزمهريره وعواصفه وثلوجه ومرسيا داخل القفص

اما المركيز فقد كان بعض الاحيان يذهب الى المدينة لقضاء بعض الحاجات ويعود الى قصره المحبوب وهو مطمئن ان مرسيا خطيبته وعما قليل تصبح امرأته . وبينما كانت مرسيا جالسة ذات مساء مع المسز بنتكيوم امام النافذة ترقب نزول الثلج الهادئ اذا بها تسمع قرعاً على باب القصر فاضطربت وقالت : « ها قد مضى عام لم اسمع قرع الباب » . فهرولت المسز بنتكيوم الى الحديقة وبعد عناء شديد وصلت الى الباب وفتحته . فرأت شاباً اقترب منها بكل احترام وقال :

« ها ان سيارتي تعطلت امام قصركم . فارجو ياسيدتي بان تسمحي لي بدخالها الى « الاسطبل » وان تتكرمي عليَّ بمصباح لارى ماذا جرى بهـا » فلم تفهم العجوز كلامه . اما مرسيا فطارت من مكانها ودفعت العجوز وصرخت « ارل جنسن ! مرحباً بك ! افهل نسيتني ؟ » فنظر اليها ارل وضحك وقال : « كيف انساك ! . . . »

فقالت « ادخل انت وسيارتك » وفتحت الباب على مصراعيه . فدهش للهجتها هذه وقال : « اراك الآمرة هنا أعساك وجدت ؟ . . . »

— : مهلاً : انني دخلت هنا كمساعدة في الشغل ولكني الآن اكثر من ذلك . وها ان المركيز مقبل فادخل ولا تثريب عليك . وابقَ عندنا هذه الليلة »

فدخل متعجباً مسروراً ودخل على اثره المركيز . فصـاحت بالمركيز قائلة : « ان هذا الشـاب من اعز اصدقائي وقـد كافته ان يبقى عندنا هذه الليلة » فاجاب المركيز « على الرحب والسعة ! » واقترب منه وسلم عليه بوجه بشوش وساعده على تفقد السيارة واصلاحها وبعد ان تم الاصلاح قال المركيز: « تفضل يامستر جنسن فانك ضيفنا هذه الليلة وهـا ان مرسيـا تريك القصر فتبيت ليلتك في اية غرفة تعجبك » فاخذته مرسيـا فرحة وقالت « سوف اعطيك الغرفة التي اختارها الملك شارل واجعلك ترقد على سريره » وقد مرت به امام الغرفة المرصوفة بالاحذية القديمة ، والاثار التاريخية . فاستغرب ارل جنسن ذلك المنظر وسألها قائلاً « ما معنى هذه الاحذية ؟ » قالت « هذه احذية اجداده . وانه لحريص على كل قديم في هذا القصر » ثم دخلت به في غرفة زينت جدرانها برسوم رجال ونسـاء اسرة المركيز العريقة في النسب

وارته سرير الملك شارل وعليه فراش العهد السالف . وقالت له: « هنا تقضي ليلتك »

ثم رجعت به الى غرفة الاستقبـال وقالت : « ان شافيلد قصر قديم جـداً ووارثه الوحيد هو خطيبي المركيز سولتفورم . وهو لا يفارقه قطعياً . وقد طلبت منه ان يبيعه فنسكن في المدن فابى بشدة وقال انه يفضل ان يموت جوعاً هنا من ان يبيع شافيلد ويعيش ملـكاً خارجاً عنه. ثم فتحت الخزانة واخرجت منها المجوهرات واللؤلؤ وقالت « هذه كلها تصير لي . ولكني لا اسربها اذا اصر الى النهاية على البقاء هنا »

ودخل المركيز وشاركهما في الحديث حتى حان وقت النوم فانسل كل واحد الى غرفته

وعند الفجر استيقظت مرسيا من نومها واوقدت مصباحها واذا بها ترى غلافاً مختوماً ملقى امام عتبة الباب فالتقطته وفضته واذا فيه كـتاب من ارل جنسن يقول : « انني ما قدرت ان انام داخل هذا القصر المخيف فانه اشبه بمسكن الارواح وقد تجسمت لي الرسوم وحامت حول مضجعي ورفرفت فوق راسي روح الملك شارل المقطوع الراس . ولهذا فقد غادرت المحل هرباً من اشبـاحه ورائحته التاريخية ومنظر الاحذية القديمة . وانني آسف لحالك وحبسك في هذا السجن المؤبد . انني لا اقول لك ان لا تقتربي بالمركيز ولكنني اقول لك بصفتي صديقك المخلص انك اذا بقيت هنا فانك تعدين « مائتة حية » وعما قليل تتخلقين باخلاق المركيز المنفرد وتحرمين ملاذ العالم . فاخرجي اخرجي من هذا القبر . اما انا فمسافر الى اميركا في الاسبوع القادم »

ولما اكملت قراءة تلك الاسطر حتى انتبهت الى نفسها وقالت « لقد تسربت اليَّ حقاً اخلاق المركيز . فاصبحت عادمة الاكتراث للعالم ومافيه... ما الذي اراه هنا سوى الاحذية القديمة ؟ ان ابقين هنا اكثر من هذا ! » وجمعت في الحال

امتعتها ونزلت الى الاسطبل وجهزت سيارتها بالبنزين الكافي واخذت لها المؤونة اللازمة وسارت بسيارتها بسرعة البرق تهيم على وجهها . وعند الصباح وصلت الى قرية صغيرة فنزلت في الفندق وقبل ان تأخذ شيئاً من الطعام جلست امام المنضدة وكتبت الى المركيز ما يأتي :

« عزيزي : انني استيقظت من غفلتي، فرأيت من الواجب ان اغادرك . قدخيرتك بين شافيلد وبيني وانا لا ازال راضية بالاقتران بك اذا رضيت ببيع المحل والمعيشة في العالم فانني حينئذٍ اجدد حياتك بايجاد شغل مرتب تشتغل به . فاكتب لي او تعال اليّ اذا احببت واما انا فلا ارجع . وبعد ان ختمت التحرير ووضعته في صندوق البريد اخذت تبكي بدموع غزيرة وتفتكر ان المركيز ينتظرها في الدار الواسعة والمائدة حاضرة وعليها الاواني الصينية النادرة التي لا تثمن. وانه سيبقى وحده حينما تأتي المساء بتتكيوم وتقول له ان مرسيا طارت.

في الصباح التالي وردها جواب المركيز يقول : «انني لا احتاج ان اقول لك ان فرارك على هذه الصورة وقع عليّ وقوع الصاعقة وبما انك ارسلت اليّ كلمتك الاخيرة ، فاني مقدم كلمتي ايضاً وهي :ياعزيزتي. انا افضل ان اموت جوعاً في شافيلد من ان اعيش ملكاً خارج شافيلد . ولا طاقة لي ان افارق محلي القديم حتى ولا لاجل خاطرك . ومع الوقت سوف اعيده الى مجده السابق - ارجو ان لا تنسيني يامرسيا وان تذكريني كما انني لن انساك . واعترف ان هذه السنة هي اسعد سنة قضيتها في حياتي . ولو ان احلامي التي حلمتها ما تمت كما اود . » خرجت مرسيا من النزل بعد ان اخذت جواب المركيز وركبت سيارتها قاصدة هورشهام وبعد ان سارت قابلاً رأت رجلاً طويلاً يشير اليها بان تأتي لنجدته . فانحرفت اليه فوجدت ان سيارته متوقفة عن السير وهو لا يعرف السبب فنزلت واصلحتها له وقالت . « سر انت امامي لان سيارتك

كبيرة وانت على مايظهر حديث في فن السوق » فسار امامها وتبعته بسيارتها الى جهة هورشهام . ثم بدات طريقها وعرجت على جهة البحر فلم تلبث ان رأت من بعيد ان السيارة التي فاتتها مقلوبة على الرجل . والرجل مطروح بجانبها فاسرعت اليه ونزلت تحاول اقامته وهو يقول انني صدمت احد اعمدة البرق فانقلبت بي السيارة وقد انكسر فخذي . فارجو من لطفك ان توصليني الى بيتي الذي لا يبعد اكثر من ميل ونصف من هنا فساعدته على الجلوس في سيارتها وسارت به الى بيته . فقال ادخلي انت اولاً وتلطفي وقولي لوالدتي ان ابنك « كلاد » تعطلت سيارته ولم يصبه اذى كبير . ففعلت

فتسارعت السيدة وخدامها فحملوه وادخلوه الدار وحضر الطبيب وعالج « كلاد » وقال لوالدته واخته « سنتيا » ان ساقه مرضوضة . وبعد ايام قلائل يبرأ تماماً . وبعد هذا طلبت مرسيا مغادرة الدار فلم تدعها والدة « كلاد » انما التمست منها ان تبقى عندهم ريثما يصلحون سيارتهم

ثم سألت السيدة مرسيا عن امرها وكيف لقيت « كلاد » وساعدته فقصت عليها تاريخ حياتها فاجابتها السيدة : ليتك تبقين عندنا تساعدين « كلاد » بصفة كاتبة . فقبلت مرسيا على شرط ان تبقى شهرين فقط ثم تعود لتبحث عن مستقبل لها فسرت الوالدة بهذا القول ودعت مرسيا الى التفرج على ابنية دارها وجنائنها الغناء فتجولت فيها مرسيا برفقة الفتاة « سنتيا » اخت المستر « كلاد » ودهشت لكل مارأته هناك من ثروة ونظام وذوق وجلال وجمال وسرّت بالقاعة الفاخرة التي عينت لها وبصحبة الفتاة سنتيا اللطيفة

وفي اليوم التالي اخذت مرسيا في مباشرة الشغل وقد جلست في غرفة « كلاد » الفاخرة . فجال في فكرها انها قد خلصت من التعب الشاق في

قصر المركيز وانها الآن في جنة النعيم فنسيت شافيلد واوانيها وجواهرهـا الثاريخية لكنها ما نسيت ان المركيز لطيف ومحبوب

قامت بواجباتها مدة شهرين حتى استعاد « كلاد » الصحة التامة . فطلب منها بان تستخدم عنده كسكرتيرة له فرضيت وتابعت الشغل عنده ولم تكن تفارقه الاما ندر وقد احبت اخته جداً جداً كما ان المستر كلاد تسربت الى قلبه محبة مرسيا . وكان كلما حضر الاجتماعات والحفلات اخذ معه والدته واخته ومرسيا وكانوا ذات يوم في مأدبة عشاء في احد المتنزهات الجامعة بين جم غفير من السيدات والرجال فاختلط « كلاد » بهم مهملاً مرسيا فلاحظت انه لا يميل الا الى الاغنياء مثله فكتمت ذلك في قلبها ... ولم تزل تتلطف بمساعدة المستر كلاد واخلاص الخدمة له ونصحه في الفرص السانحة وقد مال اليها تماماً . حتى انه لم يتمالك ذات يوم من مصارحتها على الفور بما يأتي : انني اشكرك واقر لك بانني احبك حباً ليس فوقه حب . واطلب منك بصورة رسمية ان تكوني خطيبة لي من الآن وصاعداً . فدخلت في الحال والدته وقد سمعت آخر كلامه فصرخت : « ماذا تقول ياكلاد ؟ ومن خطبت ؟ » فاجابها : « لقد خطبت مرسيا » . فقالت : « ومن هذه وماذا تعرف عن ماضيها ؟ ومن يشهد لك بانها اهل بان تكون زوجة لك ؟ » قالت هذا وخرجت مغضبة اما مرسيا فلم تجب بكلمة بل جلست امام منضدتها وواظبت على شغلها

بتلك الفطنة وبذلك الاخلاص جذبت المستر كلاد فكانت تنزع منه بلطفها كل نقيصة تراها فيه فاصبح يعبدها ويستشيرها في كل شيء وقد لاحظت والدته تغيراً عظيماً فيه . اذ هجر طيشه وتبذيره المفرط فما وسعها الا ان تثني على مرسيا وتقر بانها كانت ملاك نور ثم قالت : « لا انكر اننا اينما ذهبنا

فمرسيا مطمح الانظار وموضوع الاعجاب ولا شك ان وجودها معنا كان لسعادتنا » وبعد مضي اسبوع على هذه الشهادة الباهرة ابتاع المستر كلاد « خاتم برلنت » ليكون عربوناً لخطبته على مرسيا

وعند المساء قدمه لمرسيا قائلاً : « بهذا الخاتم اعرب عن احسانك الذي انا مدين به لك فاقبلي هذا الخاتم عربوناً للخطبة »

— انني لم اصنع شيئاً ياعزيزي لانال عليه مكافأة وبما انك الآن رجل مكمل فانني مطلقة لك الحرية لتختار لك فتاة توافق احلامك

— : لاحاجة الى الذهاب بعيداً يامرسيا ! فانت نصيبي الوحيد الذي اخترته من العالم باسره » . ووضع الخاتم بيدها — . فردته اليه بلطف وقالت : « لافائدة من هذا يا كلاد .. فانا لا اقدر ان اقترن بك » فصرخ بمزيد اليأس قائلاً : « وانا لا اقدر ان اعيش بدونك وانني سوف ارفعك الى اوج السعادة والمجد واسلطك على ثروتي الوافرة .. فاعادت كلامها : « لا اقدر ان اقترن بك يا كلاد » فانتصب امامها كالفاقد الرشد واخذ يرعد ويزبد ويقول : « لأجعلنك تتقادين لي صاغرة ! » وهجم عليها واختطفها ونزل بها الى ساحة بيته حيث كانت سيارته فوضعها فيها وجلس الى جانبها وامر السائق بسرعة السير الى لندن . فاخذت مرسيا تخبط وتصرخ وتستغيث وكلاد ماسكها بيد من حديد . ثم صاحت به قائلة : « انني لا اقدر ان اذهب الى لندن بهذه الصورة يا كلاد . افهل انت مجنون » ؟ فقال : « يجب ان تعلمي يا بنية ماذا تعمل الدراهم ، فاني بواسطتها اتغلب على عنادك . » قالت : « يمكنك ان تقتني كل شيء بدراهمك ، ولكنك لا تقدر ان تبتاع ارادتي وقلبي ! . . . »

لم تسر بهما السيارة ميلين بتلك السرعة غير الاعتيادية حتى وقفت فوراً واذا بمستودع البنزين قد خرق فسال ما فيه . . فغضب المستر كلاد